الطريق إلى الأدب

مقالان للعلامة الأَديب محمود شاكر رحمه الله، يوضح فيهما طريق مريد الأَدب إليـه.

وهما في جمهرة مقالاته، المجلد الثـاني، ص٨١٥ – ٨٢٧.

الطريق إلى الأدب

- ١ -

تلقيت رسالة من بعض أصحابنا يسألني فيها عن الطريق الذى ينبغى له أن يسلكه إلى دراسة الأدب ، ويقول : إنه يجد فى نفسه المعانى التى تجرى وتتخايل والأحلام التى تزهو وتتزين ، وأنه إذا رام الكتابة جرى فيها على طبيعته غير متوقف ، ولكنه إذا قرأها - بعد أن يفرغ منها - وجدها أقل مما يحس به ، بل هى ليست تعبر كل العبارة عما يحس به ويتمثل له من معانيه وآلامه وأحلامه .

وأنه قد أكثر القراءة لفلان وفلان من المعاصرين ، ولكنه يجدهم لا يلقون فى طبعه تلك الجذوة الخالدة التى تشتعل نارها إذا تنفست عليها النسمات التى ترتاحه وتهزه ، وأنه يعتقد - أو يخيل إليه أنه يعتقد - أن هذا الذى يقرؤه لو كان حقا من الأدب الخالد لبعث فى نفسه ما يبعث بخلوده من نفحات الخلود .

ويريد هذا الأخ الفاضل أن يدلنى على صدق ماذهب إليه ، فيبعث إلى بقطع من كلامه - ومن شعره أيضا - لأعلم أنه مطبوع على الأدب وإن كان يقصر بيانه عن إدراك الإجادة .

ثم يقول : فأرجو أن تمنحنى بعض وقتك ، وتنظر فى بعض كلامى على طريقتك فى استخراج (نوع الأديب والشاعر !!) من تحت الألفاظ التى تجتمع له ، والمعانى التى ينبعث طبعه إليها . ثم يأتى فى كتابه إلى بكلام كثير ، أستأذنه فى إغفاله هنا ، إذ ليس يجرى إلى الغرض الذى نرمى له أو الذى يريدنا هو أن نرمى إليه .

وقد قرأت الورقات التى كتبها فوجدت له روحا حرة حية متأملة تترقرق فى كلامه ، وأنه مطبوع على سرعة النظر وحسن الهداية إلى المعانى سريع النفوذ فى أغراض القول ، يتغلغل فى بعض ما يفكر فيه بما هو فوق طاقة الفكر المجرد من

---

* الدستور - السنة الثالثة - العدد ٧٢١ ، الثلاثاء ١٥ ربيع الأول سنة ١٣٥٩ - ٢٣ إبريل سنة ١٩٤٠

حدة البصيرة ومضائها ، فأسفت أن يكون هذا الأخ قد جاوز الثلاثين من عمره ، وهو ما هو ، ثم هو لا يزال حائرًا بعد ذلك لا يستطيع أن يملأ نفسه من زاد الأدب ، ولا يطيق أن يحمل أداة العمل الأدبى المرهق الذى أعد له فى طبعه . وحملنى كتابه على التفكير فى شأنه وشأن أمثاله من الأدباء الذين قتل أدبهم سوء التعليم فى الصِّغَر ، وفى الأدباء الذين يكتبون للأدب وهم لا يجيدون ما يكتبون ، ولولا أن صاحبنا هذا حيى متواضع - كما وصف نفسه - لكان من الممكن أن يزاحم كما زاحم غيره غير مبال بتقدير نفسه وتقدير ما يكتب قبل أن ينشره على الناس ، فلذلك أحببت أن أجعل رسالتى إليه رسالة عامة يحملها إليه بريد « الدستور » . ولا بأس من أن يستفيد هو ويشرك معه غيره ، إذ كان الذى يجده من الضعف يجد كثير من الناس مثله فى أنفسهم ، وكثير لا يبالى أن يجد ذلك ثم يكتب وهو لا يبالى أن يجيد أو يستفيد .

وأول ما تجب معرفته لكل طالب أدب ، أن لكل علم آلة ، ولكل آلة نظاما ، ولكل نظام مبدأ ، ولكل مبدأ أصولا ، فإذا فسد الأصل فسد معه المبدأ والنظام وتوقفت الآلة حتى يعلوها الصدأ ، وإذا وقع بعض الاختلال فى بعض الأصول أفضى هذا الاختلال إلى الآلة فجعلها تدور متعسرة ضالة يتكسر سن منها على سن حتى ينتهى بها ذلك إلى الفساد عامة بعد الجعجعة والضوضاء والصخب الذى هو كل إنتاجها . فليس ثمة علم من العلوم أو فن من الفنون إلا وقد استأثر بأصول مؤسسة ، لابد لكل راغب - فى شىء من هذه العلوم والفنون - أن يستوعبها ويجيدها ويحسن التصرف فيها إذا عالجها حتى لا يتوقف به العجز بعد الدخول فى بحبوحة هذا العلم أو الفن ، إذا فَجأَهُ مايفجأ مما لابد منه ولا محيص عنه .

فطالب الهندسة مثلا إذا لم يعرف أصولها من النقطة والخط والزاوية القائمة والحادة والمنفرجة ، والأشكال المختلفة بين التربيع والتثليث والتدوير ، ومايتبع كل ذلك من البرهان على صحة الأحكام التى تقتضيها هذه الأشكال الهندسية - فهو خليق إذن أن لا يجيد شيئا من الهندسة مهما طال مراسه لها ، وتتبعه لكتبها الكبيرة التى لا تلم بشرح هذه الأصول الإبتدائية .

فإذا خيل لهذا الطالب - بعد طول العمر فى دراسة الكتب الكبيرة - أنه مستطيع أن يشرح النظام الفلكى بالحساب الهندسى ، أو أن يبنى دارًا بما تلقف من ألوان هذا العلم ، وقع من حيث طار مرة ، أو انهدم عليه ما أقامه مرة أخرى ، وهكذا أمر كل العلوم والفنون لايشذ واحد منها عن القاعدة التى تقررها فطرة العلوم والفنون .

والأدب والشعر والفلسفة وسائر العلوم النفسية والعقلية التى يخيل لبعض الناس إنها ملك للجميع من كل صاحب عقل وصاحب نفس لا تخرج عن هذه القاعدة التى تطالبنا بتقريرها فطرة العلوم والفنون . فأيما أديب أو كاتب أو شاعر أو ناقد أو متفلسف يقتحم بابا من هذه الأبواب غير متسلح بالبراعة فى أصول الفن الذى يرمى بنفسه فيه ، فهو إلى إهلاك نفسه أدخل ، وإلى إضاعة وقته أسرع ، وبالغرور سار حيث سار ، وإنى قد رأيت أكثر من يقذف نفسه فى فن من هذه الفنون يقول : إذا كان مرد الشعر والأدب والكتابة والنقد وما إليها - هو إلى الطبع والسليقة وصفاء النفس ورقة الشعور ، فما جدوى أن نقيم الدنيا ونقعدها من أجل أشياء لا تنفع ولا تشفع ؟ وأى فائدة - بعد أن يجتمع للأديب والشاعر هذا كله - فى أن يرهق نفسه بالدراية والثقافة والبحث والدأب ، ولعله أن يكون بعيدًا عن هذا كله أقدر على العبارة عن ضمير نفسه ؟ ولعله إذا أقبل على هذه الأشياء بالدرس والتثقيف كان ذلك أسرع فى إفساد طبعه ، ومجمجة سليقته ، وتكدير نفسه ومَحْق شعوره !! ولقد أخطأ هؤلاء من حيث أرادوا الإصابة فى التقدير .

فإن أصل العلم كله من أدب وفن وعلم إنما هو النفس والطبع والشعور ، ولولا هذه لما كان فى الدنيا علم ، ولكن النفس لا تكتفى بأن تكون كل أعمالها صادرة عنها وحدها ، بل إن الاجتماع الإنسانى يضطرها أن تكون أبدًا متأهبة للتلقى كما هى مريدة للإذاعة ، وأن تكون راغبة فى مشاركة الآخرين فى تأملاتهم كما هى متشوقة للانفراد بتأملاتها . وهذا يدل على أن النفس إذا انفردت لم تؤد أعمالها إلا ناقصة معيبة ، لأن تمام أعمالها فى المشاركة .

وكأنى بابن خلدون قد رام هذا المعنى إذ قال فى مقدمته الجليلة ، حين

عرض لذكر « علم الأدب » : « هذا العلم لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارض أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهى الإجادة فى فنى المنثور والمنظوم على أساليب العرب ومناحيهم » . ثم عد ابن خلدون أشياء لا قيمة لها فى تحقيق معنى الأدب . وأنت ترى أن عبارته التى نقلناها مبهمة « غامضة » لأنه لم يجر إلى شرحها والبيان عنها ، ولكنه بعد أن تقدم فى كلامه وضع التفسير لهذه العبارة من حيث لم يرد ، ولكنه أفسد التفسير بالتعليق عليه ، وذلك قوله :

« ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا : الأدب حفظ أشعار العرب وأخبارها ، والأخذ من كل علم بطرف » . فالأخذ من كل علم بطرف أصل عظيم للأديب ، لأنه هو المعبر عن نفسه التى تريد أن تعبر عن النفس الإنسانية العامة التى يشترك فى الاستمداد منها سائر البشر .

وما دامت كل العلوم فى أصلها صادرة عن النفس فلابد للأديب من معرفة الأحوال التى تعرض لهذه النفوس فتوجهها إلى استجلاء الغامض الذى به وبإرادته وطلبه كانت هذه العلوم علوما .

وأخذ الأديب بطرف من هذه العلوم لابد أن يكون على طريقة الأديب لا على طريقة العالم ، فإن الأديب ينفذ بنفسه وروحه فيما يقرأ من ذلك ، ليحس ويستشعر نبض النفس الإنسانية الكبيرة فى إنتاج هذه العلوم . وأما العالم فإنه يريد أن يستوعب فى نفسه النبض العلمى الذى يجرى عليه التحقيق والنقد فيها وبأسلوبها وعلى هديها .

ولكن ابن خلدون أفسد معنى هذه العبارة بشرحه إذ قال بعد ذلك : « يريدون (الأخذ بطرف) من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط ، وهى القرآن والحديث إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم فى كلام العرب » .

ولاشك أن هذه بعض ما يجب على الأديب أن ينال منه ، وخاصة القرآن والحديث ، فعليه أن يعب منهما عبًا ، لأنهما نهاية الإعجاز الإلهى والبشرى فى التعبير وفى المعانى وهما النظام الخلقى العام للبشر ، وكلاهما يخاطب أول مايخاطب النفس الصافية ويمسها ويتغلغل فيها ويهزها ويملؤها ريا ونعمة وحياة .

ومنهما تتكون للأديب السليقة العربية الصحيحة الحرة التى لا تتقيد بالزمن ودواعى الزمن ، من مثل القيد الذى جعل ابن خلدون يتوهم فى شرحه للعبارة أوهاما فاسدة كقوله بعد : « فاحتاج صاحب هذا الفن - يعنى الأدب - حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها » !!

فابن خلدون إنما يشرح قولهم « الأخذ من كل علم بطرف » - على طريقة الأدب فى عصره هو ، وهو العصر الذى كان أدبه ترديدًا لحشرجة الميت لا معنى للصوت فيها إلا معنى انقضاء الأصوات وعجزها عن التعبير عن الحياة ، ذلك كان صوت الموت إذا صوت فى صدور أدباء عصره .

وكذلك زعمه أن لا مدخل لغير النحو واللغة والبلاغة والعلوم الشرعية فى علم الأدب ، إنما هو تصوير لأدب العصر الذى عاش فيه ، فحكم ابن خلدون وشرحه وبيانه ليس إلا الحكم والشرح والبيان الذى اقتضاه عصره وحده . ومهما كان ابن خلدون فى الأدب بالمنزلة التى كان بها أول من استطاع أن يقرر قواعد علم الاجتماع - لكان قوله فى علم الأدب غير ذلك ، ولاهتدى إلى السر فى تعبير القدماء من قولهم فى الأدب أنه الأخذ من كل علم بطرف .

ولعل أهم ما أسقطه فى هذا الخطأ ظنه أن قولهم « كل علم » يعنون العلوم التى قامت باصطلاحاتها ، وليس كذلك ، فإنهم أرادوا لب العلم لا حواشيه ، وجعلوا « العلم » فى هذه العبارة بمنزلة « المعرفة » التى لا تحده بحدود .

والسر كما ترى هو أن الأدب تعبير عن الحياة كلها على طريقة نفسية محضة يراد بها أن تخاطب نفس نفسا بألفاظ من اللغة تروم بها التأثير والهز ، وتنبيه النفس الإنسانية النائمة فى نفس الفرد لتوجهه إلى الغاية التى يرمى إليها الأديب بالضرب الذى اختاره من الأدب ليكون بيانا عن الحياة مهما اختلفت أنواعها وأشكالها ومقتضياتها .

والأديب من أجل ذلك مضطر لدراسة الحياة وما فيها دراسة حية بنبض النفس وحركتها وأشواقها إلى ما وراء الماده دون الجسمية أو العلمية التى تحجب

فن الحياة دون أعين الأحياء ثم هو بعد ذلك مدفوع إلى طلب العبارة عن الإحساس الذى يجرى فى كيانه الإنسانى العاقل المفكر المتأمل .

وسواء بعد أكان مايريده من الأغراض علميا أم فكريا أم قلبيا أم فلسفيا ، فكل ذلك إنما يستمد من الطبيعة التى انطوى عليها ، والتى صار بأسبابها ودواعيها أديبا يريد أن يتكلم بألفاظه ، وأن يترجم بنفسه عن النفس الخالدة الذائبة فى الكون كله ، والتى تعرف بالنفس الإنسانية العامة . هذا وسنتم فيما يستقبل بقية القول فى أداة الأديب وما يجب عليه .

* * *

الطريق إلى الأدب

- ٢ -

جاءتنى عدة كتب من إخواننا بعد الكتاب الذى فتح لنا باب القول فى « الأدب » ، وكلها يجرى على أسلوب واحد من الحيرة فى طريق الأدب . هذه الحيرة - كما يقول أحدهم - التى تجعل الأديب يمشى فى بيداء من الظنون الشائكة والشكوك الظامئة . ثم لا يفضى إلى شىء ، ولا يظفر من حياته إلا بالوحشة والمرارة والحزن ، ثم يهلك بعد ذلك كله على أرض سبخة يأكل مِلْحها كل ما يقع عليها : يبليه ويسحقه . نعم ، إن هذه الظاهرة المؤلمة هى أول الخير للأدب والأدباء وهى البشير بأن عصر الفوضى فى الأدب قد بدأ ينقضى إلى غير رجعة ، وهى الدليل على أن أكثر الأدب الماضى قد كان تلبيسا على العقل والقلب ، وشعوذة على الروح والنفس والفكر .

لقد أخرج العهد الماضى طائفة من الأدباء ، كلهم قد عمل واستعد وخرج على الناس بأدبه ، ثم غرتهم الشهرة فمضوا لم يبالوا أن ينظروا إلى قيمة الأدب الذى ينتجونه ليمحصوه للناس ، فلعل بعضه يفسد على الشباب أمر أدبهم الذى يتأهبون له . وشغل الشباب هذا الأدب الجديد ، وكبرت معانى الأسماء والألقاب فى أسماعهم وأذهانهم ، فحسبوا أن هذا الأدب هو الغاية وهو النهاية وهو الذى ليس بعده نبوغ أو عبقرية .

وتعصَّبوا لذلك بحمية الشباب ، وصرفتهم هذه العصبية عن تحرير أنفسهم وعقولهم من أسر الألقاب والأسماء .

ثم مضى زمن فنظروا فلم يجدوا فى أيديهم شيئا من هذا السراب الخادع الذى تعصَّبوا له وعكفوا عليه . بل وجدوا أنفسهم كعابد النار تحرقه ويعبدها !!..

---

* الدستور - السنة الثالثة - العدد ٧٢٧ ، الثلاثاء ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٩ - ٣٠ إبريل سنة ١٩٤٠

ولكن هذه الظاهرة الجديدة التى تدفع الشباب الجديد إلى الشك فى قيمة ذلك الأدب ، وإلى الشك فى أنفسهم - هى النجاة لهم من عبودية مستبدة ماحقة وهى التى ستقذف فى أعصاب الجيل الجديد روح الحرية ، وهى التى ستجعله يأبى إلا أن يمهد الطريق قبل المسير ، وإلا أن يتخير الأساس قبل البناء ، وإلا أن يعرف برهان الحقيقة التى يجب عليه اعتقادها قبل الإيمان بها إيمانا أعشى أو إيمانا أعور أو إيمانا أعمى يضل به ويموت عليه .

ونحن قد تناولنا فى الكلمة السالفة تعريف الأدب الذى وضعه ابن خلدون فى مقدمته ، وأخذنا فى نقده وتمحيصه لعلمنا أن الأدواء التى أدركت الأدب أو أصابته ترتد فى أصل جرثومتها إلى عهد بعيد متقادم . فأردنا بذلك البيان عن هذه العلة (بالتشخيص) والتحليل .

فإذا عرف طالب الأدب حقيقة الأدب كان ذلك أحرى أن يهديه سواء السبيل فى كل ما يقصده من أغراض هذا الأدب وهذا هو الأصل ، وأما الفروع التى تتفرع منه فهى هينة عليه بعد ذلك إن شاء الله . وقد كان القدماء الذين نقل عنهم ابن خلدون ومن هو فى طبقته - يعرفون حقيقة الأدب معرفة نفسية ، فلذلك كان كلامهم عنه صحيحًا موجزًا ولكن شرح أهل العصور المتأخرة التى ضلت عن حقيقة الأدب - حين شرحوا هذا الكلام الموجز الدقيق الفاصل - هو أصل الداء الذى تغلغل فى الأدب العربى قديمه وحديثه ، وهو الذى حقر الأدب فى عيون أكثر الأدباء ، وزيفه عند العامة .

فإذا استطعنا أن نخلص إلى حقيقة أقوال القدماء الموجزة وعرفنا سر معانيها الجميلة الدقيقة ، نظرنا - عندئذ - إلى الأدب القديم نظرة جديدة تنفض عنه الأتربة التى طمست محاسنه وروائعه كل هذه القرون ، وإذا عرفنا هذه المحاسن وما فيها من جمال وفتنة ، استطعنا أن نغير أساليب القراءة وأساليب الفكر فيما نقرأ ، فإذا أدركنا ذلك فهو أول الطريق إلى الأدب الصحيح الذى نريده ونشتاق إليه ، وهو بدء الحرية الأدبية التى لاتعرف القديم والجديد بتلك الفكرة المفتونة المريضة التى ثارت فى ميادين الأدب حينا من الدهر ، تحقر القديم لقدمه ،

وتستعظم الجديد لجدته ، على غرور واندفاع وتهور ، حتى تحطمت كل الموازين فى أيدى أصحابها ، ولم يبق للناس ميزان يعرفون به ما فى الكلام من الصدق والجمال ، وما فيه من الكذب والغش ، وهما أقبح القبح ، وهما الدمامة المتبرجة فى زينة « المكياج » اللفظى لا فى زينة الحق والعدل ، فإن القبيح ربما حسن إذا عرف الإنسان سر القبح الذى فيه ، ومن استطاع أن يعرف سر القبح فاشمأز منه ، فهو خليق أن يعرف سر الجمال فيهتز له .

وحركة النفس بالاشمئزاز والاهتزاز هى أصل الأدب - إذا ما نشأت عن الإدراك أو النفوذ إلى الإحساس بالسر الذى يكون به القبيح قبيحًا والجميل جميلا. فإذا تتام هذا الإدراك وهذا النفوذ وعملا فى كشف الحجب عن هذه الأسرار على نظام وتدبير وتساوق واطراد فذلك هو طريق الأدب . فإذا خلص للأديب مذهبه فى تناول هذه الأسرار على طريقته وبأسلوبه ، واهتز إحساسه بالمعانى اهتزازًا قويا متجاوبا بأنغامه التى يتردد صداها فى كهوف النفس فتتابعت هذه الأنغام معبرة عن خواطر العقل والقلب والنفس والروح وآلامها وأفراحها وأحزانها ولذاتها ، وظنونها وحقائقها ، وأوهامها ويقينها ، فذلك هو حقيقة الأدب . فإذا استطاع الأديب أن يصور هذه كلها بألفاظه ولغته وعبارته وأسلوبه الذى يحمل صور هذه الاهتزازات ، ويحمل أنغامها فى جرس الكلام ، فذلك هو الأدب الذى ينسب إليه ويتميز به فيقال مذهب فلان وطريقة فلان وأسلوب فلان ...

والوصول إلى هذه الغاية من الأدب ليست عملا سهلا يكون قصده هو بلوغه كلا ، فإن الفطرة وحدها أو الطبع الفطرى وحده لا يكاد يصل إلى ذلك فى مثل زماننا هذا . بل هو كان يصل إلى غايته فى العصور الأولى قبل أن يتكاثر الأدب ويتشقق الكلام ، وتستقل الطرائق للناس بعد الناس من الأدباء .

وقد كان الطبع قديمًا كافيا لتساوى من يتعاطى الأدب فى السليقة وفى بعض العلم وفى أكثر المعرفة ، ولأنهم إنما كانوا يتناولون من أغراض القول على طريقة محدودة بطبيعة الاجتماع الذى لم يكن قد تراحب مثل التراحب الذى بلغه فى زماننا .

فالآن قد امتلأت دنيا الناس بأسباب اجتماعية طاغية ، وتبعثرت حقائق الوجود فى كل علم وفن على وجوه من الاختصاص ، وتكشفت أسرار كثيرة لايحيط بها إلا من حمل نفسه حملا على متابعة الدراسة ، وطول الروية ، ومعالجة الفكر وحذر الغريزة ، وتوقد الفطنة . ثم لايخلى نفسه مع ذلك من الحرص على نفسه وإحساسه وطبعه أن ينفذ إليه مايفسده من جميع هذه الدراسات الكثيرة والتأملات الطويلة .

ومن هنا أيضا تستطيع أن تعرف مقدار ما فى قول ابن خلدون من الخطأ إذ قال فيما نقلناه لك آنفا فى المقالة الماضية « فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها » . فاسأل ابن خلدون ما جدوى أن يفهم الأديب اصطلاحات العلوم ؟ وإنما الاصطلاح حرف من الكلام مقيد معناه بالعلم الذى اتخذ له واصطلح عليه فيه ، فإذا عرفه الأديب فهو بين اثنتين ، إما أن يعرف اللفظ ليعرف معناه ويكون قائما على فهمه من حيث هو حروف مركبة وهذا شيء لا قيمة له - إذ كان الأديب لا يحتاج إليه ما لم يكن من أهل هذا العلم الذى وضع له الاصطلاح ، أو أن يعرف ذلك ويقوم على فهمه ليستطيع أن يتعلم من هذا العلم ، وينفذ فى معانى أصحابه التى يقصدونها فى علمهم هذا . فإذا فعل وتعلم وقرأ لهم وفهم عنهم ، فهو لا ينتفع بهذا العلم إلا إذا اتخذه مادة تمد أدبه وتغذيه .

أما إذا تعلم هذا العلم ليفهمه على طريقة أصحاب هذا العلم وقيودهم التى قيدوه بها فهو باطل من حيث كان لا ينفعه فيما أراده من الأدب .

وإذن فطريقة الأديب فى قراءة العلم هى طريقة امتياز ، على أصحاب العلم نفسه ، لأنها طريقة استيعاب لما وصلوا إليه من حقائقه وأسراره ، ثم تزيد على ذلك فطنة الأديب وبصره وإحساسه وقوة إدراكه للمعانى البعيدة التى تفضى إليها هذه الحقائق وهذه الأسرار ، ثم قدرة الخيال على التطرح والتسامى ، والتغلغل والنفوذ إلى أعماق مبهمة ، حيث يستطيع أن يعقد المقارنة ويقيم المشابهة ويجمع هذا إلى ذاك ، ويفرق بُعْدًا شيئين يتلازمان فى بعض وجوه النظر وكذلك يهتدى

بالفطرة الصادقة الهادية إلى معان وأسرار لا يصل إليها إلا من استقل بمثل هذا المذهب الذى يبدأ بصحيح العلم وينتهى بصادق الخيال .

وقد كان القدماء من شيوخنا يدركون ذلك ، ويفصلون بين الطبع والطبع والسليقة والسليقة ، وقد جهدوا أن يضعوا فاصلا يبين الحد بين الطبع الجيد والطبع الردئ ، ولكن ذلك مما لا يرام البلوغ إليه فى تحديد هذه الطبائع التى لا تخضع لسلطان علمى متميز بحد وقوة . فانظر مثلا إلى قول القاضى أبى الحسن الجرجانى فى كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه : « وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ، ترك التكلّف ، ورفض التعمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به ، ولست أعنى بهذا كل طبع ، بل المهذب الذى صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردىء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبح » ، انظر إلى قول القاضى وتأمله تجده قد رام البيان عن حقيقة الطبع الذى يستقل بمذاهب الأدب ويقوم عليها ، ولكنه وقع دون الغرض . قال عن الطبع : « تصور أمثلة الحسن والقبح » . والتصور فى هذا لا يكفى ولا يؤدى بالأديب إلى غاية كالغاية التى نريدها نحن ؟

نعم إن التصور شرط فى كل شيء من الأدب ، ولكن الإحساس بالقبح والحسن هو الأصل الذى لا أصل غيره فى الأدب جميعه شعره ونثره ، والإحساس المتلقى وحده لا يكفى أيضا ، بل هو الإحساس الذى يتلقى فيثور فيندفع فينفذ كما ينفذ السهم أو كما يغيب الشعاع فى ظلمة المعانى ليضىء للأديب والشاعر ما يستبهم على غيره وينغلق .

وأما قوله عن الطبع أيضا : « وألهم الفصل بين الردئ والجيد » فهو كلام جليل دقيق موجز ، فإن الإلهام – هذا المعنى المبهم الذى نحس به وبآثاره ولا نستطيع أن نعرفه أو نحدده – هو الأصل العظيم الذى يردف العقل ، ويغذى الخيال ، ويشحذ الحس ، ويهدى فى الظلمات الجاثمة على المعانى والأفكار ، وإذا استطاع الأديب أن يتنبه إلى آثار الإلهام فيما يفكر فيه ، وفيما يكتب وفيما يقول ، واستطاع أن يجعل لعقله وفكره وبعض خياله نظاما يسترشد فى وضعه

وتدبيره بهداية هذا الإلهام وتعرف آثاره فى إنتاجه ، فعندئذ تستقم له الطريقة وتنثال عليه الآراء والمعانى ، ويدخل فى الأسرار ويخرج على يسر وفى لين وبخفة ، وهذا هو قول القاضى الجرجانى فيما سلف من كلامه :

« وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به » .

ولولا أن القاضى لم يأخذ هذا الأمر من بدئه بل أمسك بذنبه وجرى وراء الذنب ، لكان وضع عبارته على التقديم والتأخير كما فعلنا نحن فى شرح هذه العبارة . فإن تَرْكَ التعمل ورفْضَ التكلف والاسترسال وتجنُّبَ الحمل على الطبع هى النتيجة التى يبدأ عمل الأديب من بعدها فأين المقدمة التى تتقدم به فى هذا الطريق ؟ وكيف يستطيع أن يكون كذلك ؟

نعم ، فليس كل من ترك التعمل ورفض التكلف وتجنب الحمل على الطبع والعنف به ثم استرسل - بمستطيع أن يكون أديبًا أو شاعرًا ، لأن هذه ليست أداة ولا شبه أداة بل هى نتيجة طبيعية لشىء آخر فإن الإحساس المشبوب النافذ الحذر الذى يصيد معانيه من كل ما يتناوله بالسمع أو بالبصر أو بالفكر أو بالخيال ثم هداية الإلهام الحر الذى يستقل بأدب الأديب ، هما اللذان ينتجان ما ينتجان ، فإن الأديب إذا خلص له هذا كله لم يكن له بد من ترك التعمل ورفض التكلف والاسترسال .

وإنما يتعمل الأديب ويتكلف فى أول الطلب ، وفى بدء ممارسته للفن الأدبى الذى يريده ، ويكون هذا التكلف والتعمل شحذا لحده ، وصقلا لمرآته ، وجلاء لروحه ، وماهو إلا القليل حتى ينطلق من هذه القيود الأولى ، ويتحرر من رق الرغبة ، ومن عبودية التقليد والمحاكاة . فإذا انطلق الأديب وتحرر تصرف فى أغراضه كلها على هوادة ورفق كأيسر ما يكون التصرف وأسهله وأنعمه وأرقه .

فلينظر طالب الأدب أول ما ينظر إلى هذه الأصول التى رتبناها ، وليحاسب

نفسه ويفهمها ، وليعرف قوة طبعه معرفة التجربة ، فإذا فعل ذلك وتدارس ما يجب عليه من الاختبار لنفسه ، فوجد عنده من الاستعداد لها أثارة قد طُبِـع عليها ، فلا يخافن ، فهو على الطريق وهو إلى الغاية ، وهو مدرك ما يبغى إن شاء الله .

* * *